

4

قصص الصحابة

امـرأة
من أهل الجنة

سلوى العناني

امراة من أهل الجنة

(بركة)

[أم أيمن بعد أمي]

صدق رسول الله

سنتحدث الآن عن واحدة من خير النساء المسلمات اللواتي لازم الرسول - عليه السلام - منذ لحظة مولده وحتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى -

كان اسمها (بركة) .. فلما تزوجت أنجبت صبيا اسمه (أيمن) ومن يومها عرفت باسم (أم أيمن) .. وبهذا الاسم تحدثت عنها كتب السيرة ، ونحن عندما نتحدث عنها قبل ميلاد (أيمن) سنسميها (بركة) أما بعد ميلاد أيمن فسنطلق عليها اسم (أم أيمن) .



كان شاباً من أكرم شباب مكة .. فهو سليل أشرف عائلاتهما وابن أعرق قبائلها .. وكان الجميع يتطلع عليه - كلما غدا أو راح - بإكبار وإعزاز واحترام .. فهو فوق كل



ما ذكرنا.. شابٌ وسيمٌ البطلعة .. في مشيته رجولة .. وفي حديثه حكمة وفي مجلسه أنس ..

هو عبدُ الله بنُ عبدِ المطلب بنِ هاشم بن عبد مناف بن قصي .

هو الشابُ الذي افتداه أبوه بمائةٍ من الإبل وفاءً لنذر .. وكان هذا هو أغلى فداءٍ دفعه أحدُ العرب حتى هذا التاريخ .

ولما بلغ عبدُ الله الرابعة والعشرين رغب أبوه أن يزوجه ، وكان لابد أن يبعث عن فتلة لا تقل شرفاً ولا حسباً عن ابنه .. وجد هذه المواصفات في أمنة بنت وهب ابن عبد مناف سيد بني زهرة .

بأله من اختيار .. أن يتزوج ابن سيد بني هاشم من ابنة سيد بني زهرة .. وتغضي الأسابيع بالعروسين مُسرعة .. وتشعر الزوجة الشابة بأعراض الحمل ، لتدخل سعةً جديدةً إلى حياة هذه الأسرة الصغيرة .

لكن إقامة الزوج مع زوجته لم تطلُ .. فقد خرجَ في تجارة إلى بلاد الشام وترك عروسه في بيت أبيه ومعها جاريتُه الحبشية (بركة) .

مضت الأيام على آمنة بطيئة متثاقلة .. وكيف لها أن
تُسعد وقد سافر زوجها بعد أسابيع قليلة من زواجهما .

ويأتي الناعي بحبر وفلج فتى قريش .. زينة فتيان بني
هاشم .. وسيم الطلعة ، جميل الأخلاق .. وتنهاوى (آمنة) ..
وتنهار قواها . وتشعر أن الدنيا قد دخلت من الحبِّ
والسعادة .. إلا أنَّ (بركة) الجارية الحبشية كانت نغمَ المُعِينِ
وغيرَ رفيقٍ (لآمنة) .. فكانت ترعاها وتهتم بحملها ..
وتسري عنها بالحديث ..

كانت (بركة) ضمن الإرث المتواضع الذي تركه
(عبدُ الله) .. وكان هذا الإرث يشمل خمسة من الإبل وقطيعاً
من الأغنام .. وهذه الجارية الطيبة الحنون (بركة) ..

وتتقدم شهورَ الحمل (بآمنة) حتى تأتي ساعة المخاض .
وتقف (بركة) إلى جوار سيدتها تساعدُها وتخفف عنها
آلام الوضع حتى تستقبل المولود على يديها .. تُسرع إليه
فتلفه وتحضنه في حُبٍّ .. ولم لا .. إنه الحبيب ابن الحبيب
والحبِبة ..

واسرعت (بركة) بالموليد إلى جدِّه الذي كان جالساً بجوار
الكعبة فسُرَّ به وقبله وطاق به متباركاً .. ثم أسماه (عمداً) .

مكثا كانت (بركة) هي أول حضن ضمَّ محمدٌ بن عبد
الله لتظل إلى جواره لا تفارقه حتى يلتقى ربه .

ورضيت (أمّة) بقضاء الله ورات في ابنها (محمد) خير
عوضٍ عن فقد زوجها الذي اختطفه الموت منها وهو ما
زال شابا .. فصاعقت حنانها ورعايتها له ، وكان من عاداتها
أن تسافر مرة في كل عام إلى (يثرب) حيث بني عدي
(أخوال عبد المطلب جد ابنها محمد) .. وتزور قبر زوجها
الحبيب .. وكان يصحبها في رحلتها ابنها وخلاصته (بركة)
التي لم تكن تفارقها أبدا ..

وتروي لنا (بركة) عن ذكريات إحدى هذه الزيارات
(يثرب) فتقول :

(أتاني رجلان من اليهود يوما نصف النهار فقلا :
أخرجي لنا أحمد ، فأخرجته فنظرا إليه وقبلاه مليا ، ثم قال
أحدهما لصاحبه : هذا نبيُّ هذه الأمة .. وهذه دارُ هجرته ،
وسيكون بهذه البلدة من القتل والسبي أمرٌ عظيم .
قالت بركة : ووعيت ذلك كله من كلامهما) .

لقد بشرت كتبُ الأديان السماوية السابقة على الإسلام
برسالة محمد وذكرت أوصاف هذا النبي وظروف دعوته ..

إلا أن عددًا كبيرًا من أتباع هذه الأديان (خاصة اليهود) لم يؤمنوا بمحمد ولا بدعوته .. وها هي (بركة) مربيته الرؤوم تروي هذه الرواية التي تؤكد علم هؤلاء بقرب ظهور نبي . وفي طريق العودة من إحدى هذه الزيارات .. وكان (محمد) في حوالي السادسة من عمره .. مرضت (آمنة) ثم اختطفها الموت لتُدفن - هي الأخرى - بالقرب من (يثرب) .

حزن الفتى (محمد) حزنًا شديدًا من أجل أمه .. بغيابها ستحيطه الوحدة والوحشة .. فقد كانت هي مصدرَ حنانِ الوجود .. بعد فقده لأبيه .

لا بد أنه كان موقفًا قاسيًا على (بركة) التي استيقظت فيها مشاعرُ الأمومة .. وعَصَرَهَا الألمُ لخال هذا الطفل الذي كُتِبَ عليه اليتمُّ من أبيه ومن أمه وهو لم يزل ابن السادسة .. وشعرت (بركة) بأنها أمام مسئولية كبيرة .. فهي جاريةُ الطفل التي ورثها عن أبيه .. وهي المخلوق الوحيد المتفرغ لخدمته .

وإلى بيت جده (عبد المطلب) عاد (محمد) ومعه (بركة) التي ظلت ترعى شئونَه وتقوم على خدمته .. وكانت له

نعم الأم بعد أمه .

ومن ذكريات هذه المرحلة تحكي لنا بركة هذه الحكاية :
(كنت أحضن^١ رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعلت
عنه يوما فلم أدر إلا بعبد المطلب قائما على رأسي يقول :
يا بركة !

قلت : لييك .. قل : أتدوين أين وجدت ابني (يعني
حفيدة عمداً) .. قلت : لا أدري .. قل : وجدته مع غلمان
قربا من السدرة ، فلا تغفلي عنه ، فإن أهل الكتاب
يزعمون أنه نبي هذه الأمة ، وأنا لا آمنهم عليه) .

إذا .. فقد كانت معرفة أهل الكتاب بنسوة (عمد) أمرا
معروفا ومتشرا حتى إن جدّه كان شديد الحرص عليه ..
يوصي (بركة) ألا تغمض عينها عنه لحظة خشية أن
يتعرض له أحد بلّثي . كان الجد (عبد المطلب) شديد
التعلق بحفيدة (عمد) فهو ابن (عبد الله) الفتى الذي لم
تشهد له مكة نظيراً في الجمال والحكمة والوسامة
والرزاقية .. الفتى الذي افتداه أبوه بأغلى ما يفتدي أب ابنه
حتى هذا التاريخ .

١- أحضن : أقرم على رعاية الطفل وحمته .

وتضاعف حنانُ الجد على حفيده بعد موت أمّه (آمنة)
وتضاعفت مسؤوليته عنه .. لكنه كان يرى في (بركة) خيرَ
مُعِين له على تحمل هذا .. فهي بديلٌ عن الأم حنانا
ورعاية .. وبديلٌ عن الأب مراقبة وحماية .

وتروى الأخبار أن (عبد المطلب) .. وهو سيد قريش
وكبير أشرافها كان يُصِرُّ على أن يجلس (محمد) إلى جواره
على الفراش المخصص له بينما يجلس باقي أبنائه بعيدا .
وكان كثيرا ما يربت على كتفه ويسمعه حلو الكلمات ،
وكانه يتمنى أن يُخَفَّفَ عن كامل هذا الصغير ألمَ اليتيم
الذي عائله ..

ولحكمة لا يعلمها إلا الله وحده مات الجدُ (عبد المطلب)
بعد عامين من موت (آمنة) لينتظي آخر مصابيح الحنان في
حيلة (محمد) .

ويروى أن محمدا بكى جده بحرقة شديدة .. فقد كان يبكي
فيه الجد الحنون .. والأب الذي مات قبل أن يُولد .. والام
التي حرمة الموت من دفعه أحضانها .

لكن حينَ (بركة) لم تكن تغفل لحظة عن الصبي .. ولم
تبخل عليه بلحَبٍ والحنان والدفع وصلق الرعاية ..

وكانها تحاول أن تعوضه عما فقد .. مرة بعد الأخرى .

وبعد موت (عبد المطلب) انتقل (محمد) ومعه (بركة) إلى بيت عمه (أبي طالب) الذي كَفَلَ الصغيرَ بعد جده ..
وتتمسك (بركة) بصغيرها وتصرُّ على رفقته ورعايته
وتحرص على كل شئونه ..

ومما ترويه - رضى الله عنها - عن طفولة النبي صلى الله عليه وسلم: تقول : (ما رأيت رسول الله شكاجوعا ولا عطشا لا في كِبَرِهِ ولا في صِغَرِهِ .. كان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة .. فربما عرضنا عليه الغذاء فيقول : أنا شبعان) .

لم تكن طفولة النبي - عليه السلام - ولا صباه مثل طفولة وصيِّبٍ باقي أقرانه وأترابه بل كان نسيجا خلاصا وطبيعة مختلفة.. كان كثير التامل .. هائل الطبع .. مبتعدا عن أماكن اللهو والعبث .. كثير الصمت وكأنه يفتش عن حقيقة يراها غائبة ..

وكان في نفس الوقت عازقا عن الطقوس والاحتفالات الدينية التي تُقام للأصنام والأوثان .

فكما عَصَمَهُ الله من الهوى التي يَزِلُّ فيها بعضُ

الشباب .. عصمه عن السجود للأصنام ..

تروي (بركة) أنه كان (ببوانة)^(١) صنم تحضره قريش وتعظمه وتنسك له النساءك ويحلقون رؤوسهم عنده ويعكفون عنده يوما إلى الليل ، وذلك يوما في السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه وكان يكلم رسول الله - عليه السلام - أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غَضِبَ عليه ورأيت عماته غَضِبْنَ عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ، ولا تُكثر لهم ؟

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً ، قالت عماته : ما دهك؟.. قل : إني أخشى أن يكون بي لم .. فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشیطان ، وفيك من خيصال الخير ما فيك .. فما الذي رأيت؟

قل : إني كلما دنوت من صنم منها ثقل لي رجلٌ أبيض طویلٌ يصيح بي : ورائك يا محمد لا تمسه .. فما عاد إلى عيد لهم حتى قُتِلَا^(٢) .

(١) ببوانة : منطقة قريبة من ساحل البحر الأحمر .

(٢) قُتِلَا : نزل عليه وحى النبوة .

كان (محمد) عليه السلامُ إنساناً رقيقاً مرهف الحسُ
صافقُ المشاعر .. فقد أدرك مدى إخلاص خلعتيه (بركة)
وكان يقدر ما تصنع من أجله ويشعرُ بعواطفها الصالحة
بحاله ..

فلما تزوج - عليه السلام - من السيدة خديجة اعتق
(بركة) تقديراً لما صنعت وعرفانا بحميلها .. إلا أن (بركة)
لم تترك بيتَ (محمد) ولم تجذَّ في عتقها أي امتياز يجعلها
تفاديه .. فقد كان سيدها يُحسن معاملتها ويشعرها دائماً
بأدبيتها ويقدر عطاءها .. وهذا هو نبي الإسلام محمد ..
يكرم خادمه ويطعمه مما يطعم ويكسوه مما يلبس ولا يسمعه
ما يخرج إنسانيته ولا ينهره أبداً حتى لو أخطأ .

لقد أصرّت (بركة) على صحبة النبي وهي حرة .. كما
أحببت صحبته وهي جارية .. فقد كانت أقرب الناس إلى
رسول الله وكان يناديها (يا أمّهُ) وكثيراً ما قل عنها .. (هذه
بقية أهل بيتي).

وتزوجت (بركة) من رجل من بني حارث يدعى عبيد
ابن زيد وأنجبت منه (أيمن) الذي كانت تُسألي باسمه
وأصبحت تعرف (بأم أيمن) ولما نزل الوحي على رسول

الله - عليه السلام - كانت (أم أيمن) و(أيمن) من أوائل من
دخل الدينَ الحنيفَ وكان ولاؤهما للنبي الكريم ولاء لا
نظيرَ له ..

وتقول بعض الروايات إن (أم أيمن) هاجرت بدينها مع
من هاجر من المسلمين الأوائل إلى الحبشة ..

لكنها هاجرت بكل تأكيد مع النبي إلى المدينة ..

وتموت (عبيد بن زيد) زوج (أم أيمن) وتستيقظُ في قلب
النبي مشاعر البتوة تجاه المرأة التي يقول عنها (أمي بعد أمي)
ويشعر بمسئولية تجاهها وتجاه استقرارها وأمنها .. فيرى أنه
يجب عليه أن يزوجه .

جلس النبي يوماً بين أصحابه وقل لهم : من سَوَّه أن
يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج (أم أيمن) .

ويبلغ (زيد بن حارثة) حبُّ رسول الله ومولاه .. ليتزوج
هذه السيدة الفاضلة .

كان (زيد) لا يقل فضلاً عن (أم أيمن) . فهو من
السابقين إلى الإسلام وهو الذي أثار البقاء مع النبي عن
العودة لأهله ، وهو الذي قالت عنه السيدة عائشة : (ما
بعث رسول الله زيد بن حارثة في جيش قط إلا أثمر

عليهم .. ولو بقي حيا بعد الرسول لاستخلفه) .

وها هو (زيد) يبادر ليتزوج امرأة تقية سالحة رغم أنها
كبره سنا وليس لها مال ولا جمل يغري شاباً في مثل سن
(زيد) .. لكنه اختارها لتقامها وورعها وحُسن إسلامها ..
وهو يأخذ بنصيحة رسول الله (أظفر بذات الدين) .. وقد
ظَفَرَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِذَاتِ الدِّينِ الَّتِي قَلَّ عَنْهَا الرُّسُولُ :
(امرأة من أهل الجنة) .

ويشعر الزوجُ فتى مسلماً تشهدُ له ساحاتُ القتْلِ في
سبيل الله والجهاد لنصرة دينه هو (أسامة بن زيد) الذي قاد
جيشَ المسلمين في عديد من المعارك والمواقف وخرج فيها
جميعاً منتصراً .

فهل اقتصر دور (أم أيمن) في الحيلة على حضانة النبي
وخدمته ثم حضانة أولادها (أيمن) و(أسامة) وتربيتهم على
مبادئ الإسلام حتى أصبحا من أعلام الدعوة الإسلامية ؟
لا .. لم يكن هذا هو دور أم أيمن فقط .. وهو دور عظيم
ورائع أدته هذه السيدة العظيمة على خير وجه ..

لكنها كانت فوق هذا الدور محاربة صامدة .. فقد
خَضَرَتْ كل المشاهد والغزوات مع رسول الله .. و كان دورُ

النساء في هذه المعارك خلف صفوف المقاتلين دائما ..
في أحدٍ .. كانت (أم أيمن) مع غيرها من النساء تُداوي
الجرّاحي وتسقي الخّاربين .. وفي خيبر كانت تحارب مع
الخّاربين وتخدم المقاتلين خلف صفوف القتال حتى إن النبيّ
- عليه السلام - كان يعطيها حقها من (الفىء) (*) .

عُمّرت (أم أيمن) حتى جاوزت التسعين .. وشهدت وفاة
النبيّ - عليه السلام - ووفدُ أبي بكر وعمر - وكان بكائها
على النبيّ بكاء حارا .. فهو الابن الحبيب .. وهو الرسول
الكرّيم .

عاشت (أم أيمن) تذكّر كيف كان النبيّ يملّزحها .. فقد
طلبت منه يوما أن يحملها - أي يعطيها ناقّة تركبها في سفر
- فقال عليه السلام : أحملك على ولد ناقّة .. فظننت أنه
يريد أن يحملها على فصّيل (**) .. فقالت : يا رسول الله ..
لا يطبقني ولا أريد .. فقال : لا أحملك إلا على ولد ناقّة ..
وكان الرسول يمزح ولا يقول إلا الحق .. فالإبل كلها ولد

ناقّة

(*) الفىء : غنائم الحرب
(**) الفصّيل : هو ولد الناقّة .

ومن المواعظ النبوية التي نقلتها لنا (أم أيمن) أنه - صلى الله عليه وسلم - قل :

"لا تشرك بالله شيئا وإن عذبت وإن حرقت ، وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء هو لك فخرج منه ، ولا تترك صلاة مكتوبة عمداً .. فإن من ترك الصلاة عمداً فقد برئت منه ذمة الله .. وإياك والخمر .. فإنها مفتاح كل شر ، وإياك ومعصية الله فإنها موجبة لسخط الله ولا تَغْلُلُ^(*) ولا تفر يوم الزحف وإن هلك وقر أصحابك ، وإن أصاب الناس موتان^(**) وأنت فيهم فائت ، ولا تنازع الأمر أهله ، وإن رأيت أنه لك ، وانفق من طولك^(***) على أهل بيتك ولا ترفع عصاك عنهم أدبا ، وأخفهم في الله عز وجل " صلى رسول الله .

(*) الغلُول : هو الحيلة .

(**) الموتان : هو الزواء .

(***) الطول : القى والبسر .